لانجلاند الانجليزى

شاعر الأخلاق والدين

بقلم الأستاذ رشدى ميخائيل السيسى

تاريخ الأدب الانجليزى حريص على أن يحشر اسم «لانجلاند» ضمن أسماء الشعراء الانجليز الذين ظهروا فى المرحلة الثانية من تاريخ هذا الأدب ، تلك المرحلة التى تنحصر فى الفترة بين الفتح النورماندى عام ١٠٦٦ ميلادية ، وبين وفاة (شوسار) الشاعر الكبير، فى العام الأخير من العقد الرابع عشر ؛ فروبرتسون وبروك وتومبسون وغيرهم ممن عالجوا كتابة هذا التاريخ من المعاصرين والقدماء لم ينقذوا الرجل من هذا الحشر ؛ ونحن ومن سبقونا واللاحقون من دارسى هذا الأدب وراغبى الكتابة فيه لابد لنا ولهم جميعاً من أن نحذو هذا الحذو بالذات . نعم لابد لنا أن نحذو هذا الحذو مترسمين خطا السابقين ، ولا بد لنا من أن نعتبر «لانجلاند» شاعراً رغم عدم اطمئناننا إلى هذه التسمية التى درجت عليها الأجيال المتعاقبة، والتى لا يقوم لدينا دليل على صوابها سوى نثر الرجل « المنظوم » الذى لا يعبر عن عواطف النفس وخلجات القلب ، شأن الشعر المطبوع ، وإنما عن أفكار وآراء لا تخلو من تنوع وجدة ، ومن تهكم وتمرد وثورة أيضاً .

أفهم أن يكون الشاعر رسولاً أميناً للطبيعة غير المحدودة والقلب الانسانى الطليق ، ولساناً ناطقاً لها قلما يخطىء أو يمين ، وإنما يعبر للعالم فى صدق عما يحويانه من أسرار الجمال والحق ، بعد أن ينشىء حول هذه الأسرار المذاعة نسيجاً مذهباً من وشى روحه الهائمة الطليقة وشعوره الصادق الجميل ، وأفهم أنه قد يكون الشاعر إلى جانب هذا مفكراً جبار الفكر ، أو مصلحاً ينشد الكمال ، أو داعية إلى مذهب جديد ، إنما لابد له كيما يستكمل رسالة الشعر المخصص لها من أن يملك قدرة التعبير عن مكنونات الطبيعة وعن مكنونات القلب ، تعبيراً رائعاً فيه حياة وقوة ، وفيه حق وجمال ، فإذا أخفق فى الاستحواذ على هذه القدرة فى الإبانة والتعبير أصبح الأدب فى حل من اعتباره شاعراً . . . فأنا « مثلاً » لابد لى من

الاعتراف بأنه كثيراً ما ينقابنى عجز عن مشايعة القائلين بأن « فيلسوف المعرة » قد أدى رسالة الشعر كاملة غير مشوبة، إلا إذا اعتبرنا الشعر ضرباً من الفلسفة، وهذا مالا يسلم به أحد ، وإلا إذا اعتبرنا كل أديب يتناول المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية فى صدد بحوثه الأدبية عالماً اجتماعياً أو إخصائياً فى علم الاقتصاد ، وهذا مالا يصح أن يكون . . . بيد أنى وإن خالفت مذهب المؤمنين برسالة «المعرى» الشعرية ، فلن تنتقص هذه المخالفة من عظمة المعرى كفيلسوف عالمى جبار ، وكأحد الدعاة الاجتماعيين . . فالمعرى وإن عبر عن آرائه وأفكاره بنظم موزون مقفى ، راعى فى بعض قصائده مثل « لزوم مالا يلزم » أن يشتط فى تقييد قافيته تقييداً يعجز عنه أبرع شعراء العرب، فإن هذا لاينفى القول بأنه أخفق أو كاد فى أن ينقل إلينا رسالة العاطفة الخالصة التى لا يشوبها الفهم العميق المعقد ، والطبيعة الصريحة غير المحدودة التى لا تعرف قيود الفلسفة ولا تحترم أوضاعها ، وهى رسالة الشعر التى لا يتيسر لامرىء مالم يهبط عليه وحيها أن يصبح شاعراً ... ولو أن أستاذنا «العقاد» لم يكشف لنا عن ملكته الشعرية فى « ديوانه » وفى «وحيه» ، لما ترددنا كثيراً عقب الاطلاع على أى من مؤلفاته الأدبية غير المنظومة أن نحكم بأنه شاعر مطبوع ؛ ذلك لأننا لابد سنحس بنسمات عواطفه المؤرجة المليئة بالحياة تهب علينا من بين ثنايا سطوره ، وذلك لأنه لابد ستأخذنا روعة مطمئنة غير فازعة عندما نشاهد لهب روحه الشاعرة تتدلع من أكثر ألفاظ شعره المنثور المبثوث فى تضاعيف كتابه ، فتداعب أفئدتنا فى رفق وتمسح عليها وتطهرها ، وذلك لأننا سنسمع موسيقى الانسانية العذبة الساحرة وتهاليل الطبيعة الشابة المرحة غير القاتمة تنبعث من معظم عباراته فتملأ علينا أجواز الفضاء .

وأنا أريد بهذا الاعتراض أن أصل إلى نتيجة ، وهذه النتيجة بسيطة ومعقولة يعرفها الجميع ، تتلخص فى أن الشاعر ليس كل من يعبر عن آرائه وأفكاره — التى يصح أن تكون عميقة جبارة — بالنظم الموزون المقفى ، وإنما لابد من أن تكون له رسالة خاصة يؤديها ، ولا بد من أن يتصف حاملها بخصوبة النفس ودقة الإحساس والائتلاف بالطبيعة وسمو الذوق وما يتبع هذا السمو من القدرة على فهم شتى ألوان الجمال والتعبير عنها فى إبانة وفى مهولة وفى غير تشويه . . . فهل تيسر « للانجلاند » أن يجعل هذه العناصر من ضمن الدعامات التى قامت عليها رسالته ؟ ! فى مقدورى أن أؤكد العكس .

* * *

لست أريد أن أنتقص من أهمية الرسالة التى أداها « وليم لانجلاند » كمصلح اجتماعى ، وكناثر « حكيم » حمل على نقائص عصره وعلى فساد المجتمع بما له من نظم بالية وأوضاع عتيقة غير عادلة ،

هذا المجتمع الفاسد الذى أحاطه المستبدون والنبلاء والأغنياء بهالة من القداسة المفتعلة غير الصحيحة حتى يرضخ له الشعب قسراً ، وإن تجرع فى هذه السبيل كأس الذلة والفقر والهوان ضافية مترعة ؛ نعم ، لست أريد أن أنتقص من أهمية هذه الرسالة ، فلم يكن « للاتجلاند » من هذه الناحية قرين ، ولو أنه عمد إلى التعبير عن آرائه الصائبة غير الناقمة ، وعن أفكاره الثائرة غير المستكينة بالنثر دون النظم ، لتضاعف إنتاجه الأدبى وزاد وضوحاً ، ولاكتسبت كتاباته من هذا الوضوح قوة وتأثيراً ، ولتيسر للاتجلاند أن يستعيد - بجانب هذا - على ما يستحقه من مركز فذ ممتاز فى عالم الأدب و« الاجتماع » ، وأخيراً لما تجرأ تاريخ الأدب أن يعده من رجاله « الثانويين » الذين لا يؤبه لهم ولا يعتد بإنتاجهم .

ففى عهده - عهد الإقطاع وعهد أرستقراطية النبلاء فى القرون الوسطى - كانت حرية الرأى فى أبسط صورها من المحرمات ، وكان أعز ما يبغيه الفرد العادى فى حياته أن ينال رضاء سادته الأشراف ، وإذ لم يكن « لاتجلاند » من هؤلاء الأشراف فقد كان لزاماً عليه أن يتملقهم وينشد نعمة رضائهم ، ولكنه لم يفعل لأنه كان فى تفكيره الحر متقدماً على جيله كثيراً ، لا يستسيغ غرور الأغنياء وتعنت النبلاء ، ولا يرى لهم ما يبرر ظلمهم للضعيف واستبدادهم بالفقير ، ولذلك ظل يتألم لأجلهم ولأجل نفسه ، إذ كان واحداً منهم ، وإن ظل فى صمت وفى سكون خشية التعذيب أو الموت ، ولكنه لم يقو على الصمت طويلاً ، ولم يرد - بجانب هذا - أن يفرط فى رأسه بالثمن التافه ، وهو ما لابد أن ينتهى إليه مصيره إذا ما أعلن تمرده على الواقع الظالم المظلم فى غير حذر أو احتراس .

وتحت تأثير عاملين من حرية الرأى ومن غريزة الدفاع عن النفس رأى « لاتجلاند » أن يحيط أفكاره الثائرة العنيفة بغلالة مقدسة من الغيرة الدينية والحماسة الكنسية ، حتى ينال بذلك تعضيد الكنيسة التى كانت تتمتع إذ ذاك بسلطة هائلة تعنو لها جباه الإمبراطرة والملوك والنبلاء ، وتحت هذا الستار المفتعل من الدين راح « لاتجلاند » يهاجم المجتمع فى غير هوادة ، وراح يفضح عيوبه ونقائصه وينتقد الخاملين المتمكنين من الأغنياء والفقراء ، ومن النبلاء وعامة الشعب على السواء ، حتى لا يتهم بالتحيز وحتى لا يجد أعداؤه ثغرة يلجون منها للطعن فى ميوله وأغراضه والتشهير به وبها .

ولعلى لا أعدو الحقيقة إذا التمست التشابه فى بعض النواحى بين « لاتجلاند » وبين « فيلسوف المعرة » ، فكلاهما كان يدعو إلى فلسفة الزهد والتقشف ، حتى لقد رضى الانجليز فى بعض الأحيان أن ينعتوا لاتجلانده بالنبى الاسرائيلى » ، لما عرف عن دعوته إلى الزهد ، وعن طباعه الحادة التى لا تلين ، تلك الدعوة وتلك الطباع التى لم تشتهر إلا عن أنبياء اليهود ورسلهم ؛ والتى تتعارض فى مظهرها وجوهرها ، مع ما يجب أن يكون عليه الشاعر من عذوبة النفس وخصوبتها ، ومن

رحابة الصدر ومرح العاطفة التي لا تحتد من نقص الناقصين ولا من ضعف الضعفاء، و إنما على النقيض من هذا تفيض حنواً وتذوب عطفاً على هؤلاء الناقصين والضعفاء ، وتأخذ من هذا النقص وهذا الضعف مادة للتسلية وملهاة للترفيه عن النفس ؛ وأنت لابد ستلمس هذه الميول التي تجعل «لانجلاند» أشبه ما يكون بناقد اجتماعي يلبس مسوح الرهبان منه بشاعر يخاطب العاطفة وينطق بلغة القلوب في جمال وصدق ... لابد ستلمسها عند ما تروح تقرؤه في كل آثاره التي تنوف على السبعة آلاف ونصف الألف من الأبيات الطويلة الروى ، وعندما تحس للسع كلماته النارية التي كأنما هي سياط ملهبة ، لما فيها من النقد المر والتهكم اللاذع ، ومن العنف الفكري الهادم الذي لا أثر فيه لروح التسامح الشعري ، ولا لنظرة الشاعر الشاملة الفسيحة إلى الحياة ، التي تحوي هذه الحياة برمتها وتشملها .

وأخيراً نوى « الجشع » صباح يوم ما أن ينال نعمة « سر الاعتراف » المقدس ، وإذ كان في طريقه إلى الكنيسة لهذا الغرض لاقته « بيتي » بائعة الخمر بتحيتها المعتادة وسألته عن مقصده فأجابها بأنه متوجه إلى بيت الله لسماع القداس وللاعتراف استعداداً للتوبة التي انتواها ، فابتسمت «بيتي الخبيثة» وذكرته في استهتار بخمرتها الصافية، وإذ ذاك انهارت نوايا « الجشع » ، ولم يتمالك نفسه من أن يسأل بيتي — في نهم — عما أعدته له بجانب الخمر من أنواع « المزات » ، وإذ اطمأن من هذه الناحية ولج المشرب في عجلة ظاهرة وهو أكثر ما يكون نزوعاً إلى ارتشاف الكأس . . . وفي نواحي المشرب وقعت عينا الجشع على كثيرين من رفاقه السكيرين وزوجاتهم من عمال وحوذية ورجال دين ، وقد هللوا جميعاً لدى رؤيتهم صاحبهم « الفاضل » ، ثم رأوا أن يكرموا وفادته بكأس مترعة ، فشربها مع عشرات مثلها تبادلها مع الحاضرين ، وثمة قصف ولهو وغناء صحب الشراب وضجت به أركان المشرب ، حتى حلت صلاة المساء وكانت أمعاء الرجل قد اكتظت وناءت بحملها ، فقام متثاقلاً مترنحاً يقصد منزله ، وكان أن مرض وصرف في فراشه يومين كاملين لا يبدي حراكاً ، ولكنه ما كاد ينتبه ويقوى على الحركة حتى فاجأ زوجته بقوله : « أين الكأس ؟ ! »

فأنت ترى أن هذا كلام قارص عنيف فيه تهكم وفيه نقد، ولكنه بعيد عن أن يكون شعراً ، ذلك لأنه وإن كان الدافع إليه إحساس صادق بما كان في أيامه من نقص ، ولكن طريقة التعبير عنه جاءت مشوهة معقدة غير جميلة، وأنت لابد ستقتنع بهذا إذا ما قرأت «لانجلاند» في أسلوبه الانجليزي المعقد غير السلس المملوء بشتى التعابير التيوتونية المهجورة المستعملة في الكنائس والأديرة فحسب .

وكتابات لانجلاند تخاطب العقل دون الشعور ، وتلتمس انتزاع تقدير القارىء لها، دون إعجابه بها ومداومة مطالعتها ، وهو قانع بذلك ما دام قد ضمن لنفسه أن القارىء لابد واجد

نفسه مرغماً على الاعتراف بجبروته الفكرى حتف أنفه ، وهو قانع بذلك مادام قد ضمن لنفسه أن يستدر فزع القارىء من قلمه النارى الهادم الذى وصمه معاصروه بالجنون ، ولعل لهؤلاء عذراً فى هذه التسمية ، إذ لم ينج أحد منهم من نقده اللاذع الصريح ، أو تعريضه الجارح الجرىء ، أو لمزه غير المكشوف الذى يتضاءل أمامه كل نقد وكل تعريض .

ومثل « رهين المحبسين » عاش « لانجلاند » بين قومه وهو برم بهم وبالحياة معهم ، وافر الازورار منهم ، وإن كان فى أعماق قلبه أكثر شفقة بهم وحناناً منهم على أنفسهم ، ولكنها شفقة المؤدب بتلاميذه يحبوهم بعنايته التى كثيراً ماتلبس ثوب القسوة ، ويخصهم بإصلاحه وإن توسل إليه ببعض ضروب الإرهاق ، وهكذا راح « لانجلاند » فى مجموعته الشعرية « رؤيا الحارث » المتصلة الجوانب والمواضيع ، يحلم ويتخيل كأنه فى برية جرداء قاحلة ، وعن يساره هاوية مظلمة حيث الموت والشيطان ، وعن يمينه منارة الصدق الشاهقة الساطعة ، وبين المنارة والهاوية يقوم العالم الصاخب بما فيه من كافة الأحياء ، أغنياء وفقراء وأشراف وعامة الشعب ، وهنا تتجلى روح « لانجلاند » فى وضوح بما فيها من تمرد وثورة على الأوضاع وعلى مالها من قداسة القدم ، وبما فيها من حرية فكره التى لاترضى أن تحترم حدود الواقع أو تسلم بها ، فيروح يخاطب الفلاحين بقوله : « أيها الفلاحون الأمناء ، ياحاصدى التبر من التراب ، ويانعمة البلاد ، لاتبتئسوا إذ يأكل الكسالى من النبلاء زرعكم كأنهم غربان الحقول ، وأنتم من خلف محاريثكم تكدون وتنصبون فى غير هوادة أو رفق »

وقد اختص طائفة الفلاحين الفقراء بهذا الخطاب لأنهم كانوا عماد ثروة البلاد إذ ذاك ، إذ لم تكن هناك صناعة ما بانجلترا أو بغيرها من أقاليم أوربا ، وبعد هذا ينتقل لانجلاند من مخاطبة الفلاحين إلى طائفة أخرى مجهولة ، لعلها فئة النبلاء وأشراف البلاد ، فيروح يوجه إليها حديثه :

« ياسادتى الكسالى المحترمين ، ياذوى الملابس الزاهية والجسوم السمينة الناضجة ! لعلكم لاتختلفون كثيراً عن المشوهين من المخنين والسائلين المتجولين الذين لايعنون بشىء قدر عنايتهم البالغة بملء بطونهم وحقائبهم ، ما أحرى بكم أن تتواروا خجلاً من بطالتكم ! ! . . . »

وهكذا يستمر « لانجلاند » فى انتقاده المر لكل طبقات الشعب دون استثناء : فيتناول عيوبهم ونقائصهم بالتشهير فى أسلوب تهكمى لاذع تشوبه صيغة دينية قاتمة غير متفائلة تفعم القلب وحشة مظلمة وإن أشبعت العقل .

وأخيراً لعلى وفقت لاعطاء القارىء فكرة غير خاطئة عن هذا المفكر الكبير الذى لم ينصفه قومه ، فقللوا من شأن رسالته الحرة كما هو معروف عن خلقهم الذى يأبى الطفرة ولا يشايع من يخالف الأوضاع والتقاليد .

رشدى ميخائيل السيسى
ليسانسيه فى الأدب الإنجليزى